مصطلح الأصوات اللغوية
بين الحد والوظيفة

ذ . حسين كنوان(*)

1 – مفهوم الصوت (حروف المعجم ووظائفها)

يعرف استعمال هذا المصطلح نوعا من الاضطراب عند المحدثين بل الخروج عن وظيفته الدلالية إذ ما قورن باستعماله عند القدماء. ولذا يبقى هذا العنوان (الأصوات) مطلقا من أية صفة تقيده، لتحديد الصوت المقصود، حتى نستعرض تعاريف القدماء له، ذلك أن الصوت نوعان: لغوي، واصطلاحي وقد عرف التفريق بين الدلالتين نوعا من الخلط عند المحدثين[1]. أو بعضهم على أقل تقدير، الأمر الذي يستوجب مناقشة هذا المفهوم لتوضيح المصطلح المقصود ومدلوله، ولذا فقبل الحديث عن الصوت المفرد الذي يعتبر من أجزاء الكلمات المفردة ومكوناتها، لابد من توضيح معنى الصوت لغة، وهل له دور في مجال التواصل بين الناس، وهل يعنى الصوت المفرد أم يعنى شيئا آخر سواه. وإذا كان يعني شيئا آخر؛ فما هو، وما طبيعة علاقة ذلك بالصوت المفرد؟

ينطلق الصرفيون[2] العرب من افتراض ثلاثة أحرف لتحديد بنية الكلمة، اصطلحوا عليها ب « ف » و « ع» و «ل» أي فاء الكلمة، وعين الكلمة، ولام الكلمة. وبما أن أية كلمة تصدر عن المتكلم بقصد منه؛ وإرادة، فإن أي صوت مفرد مما يقال له أحرف الموزون من الكلمات التي ينطق بها المتكلم يحمل مدلولا عاما في إطار الكلمة المنطوق بها، لأنه يمثل جزءا من المجهود الذي يبذله المتكلم بقصد؛ لتجسيم معنى معين. فالصوت المفرد ذو دلالة عامة في إطار مجموعة الأصوات التي يؤلف معها كلمة ذات دلالة معينة. والذي يدل على أن أي صوت مفرد في الكلمة يحمل دلالة ما هو أن دلالة الكلمة تتغير رأسا على عقب إذا ما استبدل هذا الصوت أو ذاك بغيره، بالخصوص مما يباينه في المخرج أو الصفات، وعليه فلكل صوت مدلوله العام يميزه عن بقية ما يمكن أن يحدث من مثله، في موقعه من الكلمة عندما تضغط

(*) أستاذ بكلية الآداب، مكناس.

1 – كثير من هذه الكتب معنونة بمصطلح « الأصوات، أو الأصوات اللغوية »

2 – وهو ما اصطلحوا على تسميته بالميزان الصرفي.

إرادة المتكلم لتخرجه من حيز معين من مخرج معين في ذلك الموقع من الكلمة، وعلى نفس ذلك الترتيب[3]. فنسميه صوت كذا، في موقع كذا من الكلمة مما سميناه فاء الكلمة،أو عينها ...الخ. فهناك إرادة المتكلم لإخراج هذا الصوت دون سواه، في هذا المقام دون غيره، وتلك الإرادة هي التي تجعله يؤالف بين أصوات معينة، بقدر معين، ويخرجها بإرادته لقصد معين، ابتداء من أول صوت في الكلمة، إلى آخر صوت منها.وعليه يمكن القول بأن دلالة الكلمة مبنية أساسا من دلالات الأصوات، ولتأكيد هذا البناء المقصود للكلمة، وهي لبنة الكلام، أخرج بعض النحاة من حد «اللفظة» المهمل من الكلمات وهي التي ينقصها التأليف المقصود لتدل على معنى، وكذلك الكلمات الدالة بالطبع. «واشترطوا قيد الإسناد في التركيب وهم يعرفون الكلام، وفرقوا بين تركيب الأفراد، وتركيب الإسناد»[4]. وفي إطار ضرورة وجود إرادة المتكلم وقصده؛ نص النحاة على مجموعة من التراكيب التي لا تفيد فائدة يحسن السكوت عليها، وأخرجوها من حيز التركيب الذي يفيد فائدة يحسن السكوت عليه مثل «المركب الإضافي،والمركب الإسنادي، والمعلوم مدلوله ضرورة وغير المستقل كجملة الشرط، وغير المقصود كالصادر من الساهي والنائم»[5].

إن الإرادة والقصد، أمران أساسيان للإفادة المطلوبة من المتكلم وفق مقاييس اللغة العربية. إن ما يسميه البلغاء بمقتضى الحال الذي يعني « أن يوتى بالكلام على صفة مخصوصة تناسبه »[6] لا يغيب عند المتكلم المستوفي لشروط الخطاب السالفة الذكر أثناء انتقاء ما يناسب من الكلمات، بل وقبلها الأصوات التي يؤلف منها الكلمات. فإذا كنا نعتني بتوظيف بعض الأدوات كالتأكيد للمنكر فيما هو متعارف

3 – دون سواه مما هو ممكن من التقاليب المستعملة.

4 – انظر ابن يعيش ــ شرح المفصل بتصرف عالم الكتب ــ بيروت ج1/ص18–28.

5 – حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ــ دار إحياء الكتب، عيسى البابي ج21/1.

6 – سعد الدين التفتازاني ــ شروح التلخيص–دار الكتب العلمية–بيروت لبنان بدون طبعة وبدون تاريخ 122/1.

عليه في البلاغة، فإن ثمة مستوى قبل هذا نمارس فيه عملية تقوية خطابنا دون التنصيص على ذلك، وذلك كاستعمال الكلمة [7] المضعفة بدل غير المضعفة، وكاستعمال أصوات الجهر [8]، في تجسيم حدث وأصوات الهمس في مقام آخر. إن اختيار المتكلم البدء بأول صوت من الكلمة موصوف بهذه الصفة أو تلك من صفات الأصوات التي تميز القوي منها من الضعيف، أمر تقتضيه مناسبة اللفظ للمعنى، والدال للمدلول، على غرار ما يناسب الإيجاز مقاما، والإطناب آخر، إلا أن تلك مناسبة التأسيس وهذه مناسبة التوظيف والإبلاغ، فتلك حال البناء، وهذه حال الاستفادة، حال بناء الثوابت، وحال توظيف المتغيرات.. حسب مقتضى الحال المتجدد [9]. إن أصواتا معينة تفرض نفسها تلقائيا على المتكلم عندما تتضح له صورة فكرة ما، أو حدث، مما يريد التعبير عنه بما يناسبه من الأصوات ويجسمه للمستمع.

قبل الوقوف عند بعض الوظائف التي تمثلها الأصوات الاصطلاحية حسب مخارجها، وأحيازها، وصفاتها في بناء الكلمات. وتجدر الإشارة إلى وظيفة الصوت لغة في حياة الإنسان، ذلك العالم الذي اجتزأنا منه هذا القدر اليسير من المقاطع الصوتية، مما يفيد في بناء الكلام، وتضطرب التسمية بصدده بين ما ينبغي أن يطلق على الكل، وما ينبغي أن يسمى به الجزء.

---

7 – لقد مرت بنا دلالة « كلا» في القرآن الكريم. ويفرقون أيضا بين دلالة « أنزل» ونزل، كما سيأتي في باب الصرف.

8 – تقسم الكلمات إلى محورين دلاليين عامين هما: محور الكلمات المبدوءة بأحرف الجهر وتمثل القوية وأخرى بأحرف الهمس وهي عكسها.

9 – إن مقتضى دلالة بنى النص من الأصوات المفردة،والكلمات بأنواعها،والتراكيب لا يتغير،مفهوما وتوظيفا في حين أن الثابت من المفاهيم البلاغية المتعارف عليها،يتغير مضمون توظيفه بتغير الحال. فدلالة الرماد على الكرم لم يعد ممكنا، لأنه أصبح يرمز إلى التلوث وتدمير الطبيعة مع العلم أن وسيلة الطبخ لأجل الكرم قد تغيرت.

2 – الأصوات اللغوية و إشكال المصطلح (بين الحرف والصوت)

الصوت لغة مصدر كلي، يعني كل ما ينتج عن تأليف الأصوات الاصطلاحية بقصد أو بدون قصد، وقد يصدر عن الإنسان أو غيره من الكائنات، ويعني معجميا، النداء، وما يدور في حيزه من المعاني. وما النداء إلا تعبير عن شعور المنادي بشكل معين، حيث ينبه غيره لأمر معين، أو يزجره، أو ينهاه. وكل ما يصدر عن الإنسان من الأفعال [10] التي ينطق بها هو تعبير عن المشاعر، سواء كان ذلك نفيا، أو تأكيدا، حبا، أو بغضا، رغبة، أو رهبة، وهكذا... ولذا سمي الصوت الذي هو مادة كل ذلك نداء قال ابن منظور:[11] «.. وقد صات يصوت، ويصات صوتا، وأصات ... كله نادى، يقال صوت يصوت تصويتا، فهو مصوت، وذلك إذا صوت بإنسان فدعاه. ويقال: صات يصوت صوتا، فهو صائت معناه: صائح ابن السكيت: الصوت، صوت الإنسان وغيره. والصائت: الصائح، ابن بزرج: أصات الرجل بالرجل إذا شهره بأمر لا يشتهيه ... وفي الحديث: « فصل ما بين الحلال والحرام: الصوت والدف، يريد إعلان النكاح، وذهاب الصوت، والذكر به في الناس. يقال له: صوت، وصيت أي ذكر ... وفي الحديث: « أنهم كانوا يكرهون الصوت عند القتال، وهو أن ينادي بعضهم بعضا، أو يفعل أحدهم فعلا له أثر فيصيح ويعرف بنفسه على طريق الفخر والعجب».

يلاحظ من خلال هذه المعاني اللغوية لمادة « ص ــ و ــ ت » أنها تجسم في مجملها، الوظيفة الكلية للصوت؛ كيف ما كان ومن أي مصدر كان، كما تدل على ذلك عبارة ابن السكيت في هذا النص. أما بخصوص الإنسان فيعتبر الصوت عنده

10 – يقول الكفوي « العمل: المهنة والفعل ... قال الصفاني: تركيب الفعل يدل على أحداث شيء من العمل، فهذا يدل على أن الفعل أعم من العمل » ينظر الكليات لأبي البقاء الكفوي ص 681–683 و البحر المحيط لأبي حيان ــ 66/4.

11 – لسان العرب 57/2.

أداة تواصل؛ وتعبيرا عن الأحاسيس، فهو « نداء، أو صياح، أو دعاء تعبيرا عن غرض معين » فالصوت إما أن تكون له بغيره من بني جنسه حاجة فيناديه أو يدعوه، أو يأمره، أو ينهاه ...الخ. وإما أن يصاب بمكروه فيصيح تعبيرا عن ألمه، أو يفوز بغنيمة فيعبر عن بهجته وسروره. وقد يفصل الناس بالصوت في بعض شؤون دينهم أو دنياهم كما ورد في الحديث « فصل ما بين الحلال والحرام الصوت». والمولود يعتبر من الأحياء بصرخة واحدة فيكون له بذلك نصيب من الإرث شرعا،ولو فارق بعد ذلك الحياة، فصوت الإنسان تعبير من جانب واحد عن رغبة، أو إحساس أحيانا، وقد يكون أداة تفاهم، وفصل بين طرفين أو أكثر أحيانا أخرى، ذلك أن المصوت، ينادي، أو يدعو، أو يصيح، أو يعبر عن غرض معين يجمعه بغيره من الناس، وتلك هي الوظائف الدلالية للكلمات الاصطلاحية التي يستعملها الإنسان حسب أغراضه التواصلية المختلفة، وذلك ما اصطلح عليه أثناء تركيبه بالكلام، فالصوت يعنى عند الإنسان الكلام، بأي شكل كان شريطة أن يصدر من عاقل للدلالة على معنى معين.

إن للصوت من حيث هو صوت لغوي، مطلق غير مقيد أهمية في حياة الإنسان (العربي)، إذ به يعبر عن حالة من أحوال الذات أحيانا، وبه يميز بعض ظواهر الكون مما يعايشه، ويحيط به أحيانا أخرى، ذلك أن للإنسان أصواته، وللحيوانات أصواتها، وللطبيعة والأشياء أصواتها. وكل ذلك يدخله الإنسان في قاموسه اللغوي، وهو يتعامل مع الحياة. وعليه تحدد وظيفة الصوت اللغوي، في القاموس العربي باعتبار مصدره النوعي، أهو إنسان، أم حيوان، أم غير ذلك من الموجودات في الكون، وقد يكون هذا التحديد بناء على أداته عند الإنسان، أي العضو المباشر لأحداثه، فليست كل الأصوات التي تصدر عن الإنسان باعتبار أعضائه المتنوعة في مستوى واحد من الاعتبار. قال تعالى: « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية »[12]. وشبيه بذلك أي اختلاف صوت الإنسان باعتبار اختلاف أعضائه: الحالة التي يوجد عليها

12 – سورة الأنفال الآية 35.

الإنسان حالة إحداث الصوت، من نوم أو يقظة،أو صحة، أو مرض، ثم تدرجه من حيث القوة، أو الضعف أثناء حدوثه من مصدر واحد من مصادره. إنه نظام تواصلي خاص يجعل من الأصوات اللغوية عند العربي مستوى خاصا من مستويات التعبير، له ضوابطه التي تحدد معالمه، وترتب وظائف جزئياته. ذلك أن لهذا المستوى من التعبير مجالات ثلاثة كبرى تحددها مصادرها النوعية. فثمة مجال لأصوات الإنسان، وآخر لأصوات الحيوانات، وثالث للجمادات والأشياء. ولكل نوع خصوصياته ومواصفاته ... يحددها المصدر النوعي أولا. ومصدر التنفيذ ثانيا، ثم رتبته من حيث القوة أو الضعف بالنسبة لغيره من الأصوات التي قد تشاركه في مصدر التنفيذ؛ وهو العضو الذي باشر به الإنسان إحداث ذلك الصوت، أو حيزا من أحياز عضو ما.

كل صوت من هذه الأصوات رمز دال يحيل السامع على معنى من المعاني، قائما مقام الكلمات (الاصطلاحية)، إنه مستوى تعبيري خاص، يعني المخزون المعجمي العربي برموز صوتية دالة، خارج معجم الكلمات، إنها لغة خارج اللغة ــ لأنها أداة تواصل وتفاهم لا تخضع لقواعد اللغة، ولكنها تدعم اللغة وتسعفها – بل لعلها أسها الذي استمدت منه اللغة معطياتها الأولية (كالمصطلح: الصوت) و (الوظيفة: التواصل). ولذا لا نستغرب إذا ما وجدنا كثيرا من علمائنا اهتموا بالصوت اللغوي، تصنيفا، ووظيفة، ولعل هذا الاهتمام هو المنطلق الذي أنار الطريق أمام بعض الدراسات الجادة التي تسعى من حين لأخر لربط الدوال بمدلولاتها، أو اللفظ بالمعنى عن طريق وظائف الأصوات الاصطلاحية كما هو عند ابن جني وأمثاله.

خصص الثعالبي في كتابه: «فقه اللغة وسر العربية»[13] الباب العشرين للأصوات، وحكاياتها مؤلفا من ثلاثة وعشرين فصلا، يمكن تصنيفها إجمالا في سبع خانات حسب مصدر التسمية وهي: (الحركية، والقولية والعضوية). أو الوظيفية مثل

13 – فقه اللغة وسر العربية،حققه، ورتبه،ووضع فهارسه: مصطفى السقا،إبراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي الطبعة الأخيرة لسنة 1392 ــ 1972م ص: 213.

(أصوات المحاكاة) أو حسب سمة القوة والضعف، (كالشديدة والخافتة التي تفهم)... ويمكن جرد كل هذه الفصول مرتبة كما هي في الكتاب بناء على الاعتبارات السابقة كما يلي:

أولا: الأصوات الحركية، أي الصادرة عن حركات جسم الإنسان وغيره، ويمثل لذلك في الفصل الثاني، إذ يقول: «فصل في أصوات الحركات: الهمس صوت حركة الإنسان، وقد نطق به القرآن، ومثله الجرس والخشفة...»[14].

ثانيا: القولية، أي الأصوات المأخوذة مما يحكيه الناس بأقوالهم، يقول الثعالبي:« فصل في حكايات أصوات الناس في أقوالهم، وأحوالهم، كالقهقهة: حكاية قول الضحك: قه، قه، الصهصهة: حكاية قول الرجل للقوم: صه، صه. وهي كلمة زجر للسكوت ...»[15]. ويدخل ضمن هذا التصنيف مادة الفصلين (6) و(7).

ثالثا: العضوية، أي التي تكون تسميتها منسوبة إلى العضو المحدث لها، يقول الثعالبي«فصل في تفصيل الأصوات من الأعضاء. الشخير: من الفم، والنخير: من المنخرين، والنخيف منهما عند الامتخاط»[16] ويمكن إدراج مادة الفصلين (12) و(13) من صفحة 218 في هذا المعنى.

رابعا: الحكائية، أي التي تحاكي ما في الواقع وتطابقه، وهي التي يمكن أن نسميها وظيفية، أي أنها تسمت حسب وظيفتها الدلالية، يقول الثعالبي «فصل فيما يليق بهذا الباب من الحكايات ... قال: سمعت العرب تقول / غاق غاق، لصوت الغراب وطاق طاق، لصوت الضرب ... تقول العرب في حكاية صوت حوافر الخيل على الأرض: حبطقطق ...»[17].

---

14 – فقه اللغة وسر العربية ص: 213.

15 – المصدر نفسه 216–217.

16 – المصدر نفسه 218.

17 – نفسه 224.

خامسا: الاصطلاحية: سميتها بهذا الاسم لأنه يصعب ربط دلالة الصوت فيها بحيثية معينة كالحركة، أو القول، أو العضو، أو المحاكاة، ويمكن اعتبار أصوات «الحيوانات ضمن هذا النوع، مثل أصوات الخيل والبغال، والحمير، وأصوات ذات الظلف، والسباع، والطيور ...الخ وما يلحق بها من الحيوانات، ومظاهر الطبيعة، ويتجلى هذا في الفصول (13) و (14)، (15)، (16)، (17)، (18)، (19)، (20)، (21)، (22)»[17].

سادسا: حسب القوة والضعف ذلك أن بعض هذه الأصوات يستمد تسميته من درجة سماعه، يقول الثعالبي « فصل في ترتيب الأصوات الخفية وتفصيلها ... من الأصوات الخفية: الرز ثم الركز، وقد نطق به القرآن...»[18] ويلحق بهذا الفصل: الفصول (214/3) للأصوات الشديدة: كالصياح: صوت كل شيء إذا اشتد... والفصل 215/4 في الأصوات التي لا تفهم [مثل] اللغط: أصوات مبهمة لا تفهم، والفصل 217/8، وهو فصل في حكاية أصوات المكدودين كالأحيح [وهو] صوت يخرجه توجع أو غم. والفصل 217/9 [وهو] فصل في ترتيب هذه الأصوات: إذا أخرج المكروب، أو المريض صوتا رقيقا فهو الرنين، فإذا أخفاه فهو الهنين ... والفصل 218/10 [وهو] فصل في ترتيب أصوات النائم، [ف] الفخيخ: صوت النائم. وارفع منه النخيخ، وأزيد منه الغطيط...»

سابعا: الدعائية، يقول الثعالبي«فصل في الأصوات بالدعاء والنداء، الهتلف: الصوت بالدعاء ... الجخجخة: الصياح بالنداء ... الجأجأة: الصوت بالإبل لدعائها إلى الشرب ... الهأهأة: الدعاء بها إلى العلف...الخ»[19].

إن تصنيف الأصوات اللغوية في هذه الخانات السبع، هو تصنيف تقريبي منهجي، لأجل ضبط الوظائف الدلالية المتقاربة لهذه المجموعة من الأصوات أو تلك، وإلا فالتفصيل العام الذي أورده الثعالبي، له أهميته إلى حد بعيد، مع العلم أن بعض

18 – فقه اللغة وسر العربية 219–224 (بتصرف).(18) نفسه 214–218.

19 – فقه اللغة وسر العربية 215.

هذه الفصول يمكن دمج بعضها في بعض، مثل الأصوات الدعائية والحكائية، إذ يمكن جمعها تحت مصطلح: الوظيفية، في حين أن سمتي القوة والضعف، أو الاصطلاح يمكن أن تنسحب على الجميع، لكنها تبرز بقوة في خانة وتضعف في أخرى.

إذا تأملنا هذا التقسيم التفصيلي الذي أورده الثعالبي للصوت من حيث هو صوت لغوي دال، فإننا نصنفه حسب مصدره إلى ثلاثة أنواع هي: صوت الإنسان، أو الحيوان، أو الجماد والأشياء، وهي كل نواحي الحياة التي يمكن للإنسان أن يستفيد منها، ويعايشها، ويعبر عنها، وهذا ما يجعل الباب مفتوحا لتوظيف هذا النوع من التعبير كلما تعددت مصادر حدوثه، واتسع مجال توظيفه، فثمة أصوات كثيرة في حياتنا بصفة خاصة، وفي حياة الإنسانية بصفة عامة ذات دلالات معينة، يعايشنا بعضنا في أغلب لحظات حياتنا المدنية، ولا يكاد يفارقنا لحظة، كمنبه السيارة، أو غيرها من المركوبات العصرية، أو جرس المنزل، أو سيارة الإسعاف، أو أجراس المدارس ... وبعضها لا نسمعه إلا في فترات متباعدة، كصفارة الإفطار عندنا نحن المسلمين، أو سفارة الإنذار. وكل صوت من هذا الأصوات تعبير يغني عن اللغة، فما يتعلق بأصوات المركوبات ينبهنا لإخلاء الطريق في تلك اللحظة، ورنة جرس المنزل تنبهنا إلى أن ثمة شخصا بالباب يرغب في زيارتنا. أما أجراس المدارس فإنها تعلن عن بداية الحصة أو نهايتها...

كل هذه الأصوات معبرة، كما كانت تلك معبرة، الأمر الذي يؤكد أهمية الصوت اللغوي في حياة الإنسان، باعتباره قيمة تعبيرية ملازمة له يوظفها بدل اللغة في كثير من مجالات الحياة.

لقد كانت بعض الحقوق وما تزال تثبت بالصوت إذا حدث، وتنتفي بانعدامه، وذلك مثل حال استهلال المولود، أو عدم استهلاله: «والاستهلال: صياح المولود عند الولادة»[20].

20 - فقه اللغة وسر العربية: 214.

والذي يبدو؛ أن الأصوات الحديثة معبرة عن معـــان، ومســـتغنى بهـــا عـــن الكلمات، بل العبارات أحيانا، شأنها في ذلك شان الأصوات القديمة التي استعاض بها الإنسان العربي عن الكلمات، والعبارات في شـــتى المجـــالات، إلا أن دلالتـــها أي الأصوات الحديثة اصطلاحية أكثر منها لغوية وظيفية، فصفارة الإنذار مرتبطـــة في ذهن الإنسان العصري بوجود خطر ما في مستوى معين يهدد حياته في تلك اللحظة؛ عن طريق التجربة والعادة، وجرس المدرسة يخبرنا بانتهاء الحصة إن كنـــا في قاعـــة الدرس، أو لاستعداد للشروع في أخرى إن كنا خارج القاعة. وقد لا يفـــهم هـــذا الخطاب من ولج المدرسة لأول مرة حتى يثبت ذلك عنده بحكم العادة والتجربة.

إننا نفرق بين صوت منبه السيارة إذا استعمل لإخلاء المارة من الطريق،وبينـــه إذا ما استعمل للفرحة والتسلية وهو يحمل أفرادا ضمن موكب العروس مثلا، وقـــد يستغرب البعض منا من حدوث أمر من الأمور، فيعبر عن استغرابه بالتصفير. ومـــا التصفيق في موقف من مواقف التأييد والتشجيع، إلا نوع من الأصوات، وقد يكـون الصوت تعبيرا صارخا عن عدم الرضا عن أمر من الأمور كما هو الشـــأن بالنســـبة للجمهور؛ وهو يشاهد مبارة ما. وقد يصوت الإنسان في مقام، أو مكان غير مناسب لذلك، فيكون الصوت لحنا، وفي القرآن الكريم: «وما كان صلاتهم عند البيـــت إلا مكاء وتصدية »[*].

إن الأصوات بهذا المعنى لغة خاصة متنامية، منتشرة في شتى منـــاحي حيـــاة الإنسان، قابلة للضبط والتقعيد، وعليه فلا غرو أن نجد الثعالبي يقـــول: « البـــاب العشرون في الأصوات وحكاياتها...الخ».

لقد كانت تلك الأصوات:الصادرة عن الإنسان بالخصوص تصور حدثا مـــا باطراد، سواء صدرت من الإنسان وهو في حالة صحية جيدة كما هـــو الحـــال في:

[*] ســـورة الأنفال: 35.

«فصل في حكايات أصوات الناس في أقوالهم، وأحوالهم 216/6».أو في حالة مرض كما هو الحال في «فصل في حكاية أصوات المكروبين،والمكدوكين والمرضى 217/8».

هذا بالنسبة للأصوات الصادرة عن الإنسان، أما غيرها مما يصدر عن الحيوانات، أو الجمادات والأشياء، فإنها تنقسم إلى قسمين :

أ ــ محاكية للحدث كالخرير، والقشيب، والفقيق من أصوات الماء 221/19. والأزيز للمرجل 222/20. والحفيف للأغصان 233/22. والصرير للقلم، والسرير للباب.223/22. والنقيق للدجاج223/22.

ب ــ أصوات تكاد تكون مجرد اصطلاح لغوي نظرا لعدم وجود علاقة واضحة بين تسمية الصوت، ووظيفته الدلالية، أو لصعوبة تفسير هذه العلاقة وإدراكها، وذلك «كالحسيس [وهو] من أصوات النار ...والكحبة: صوت توقدها، والمعمعة لهبها إذا شب بالضرام، وما أشبه... 222/20.

وعليه يمكن القول بأن ثمة مستوى نوظفه في كثير من مرافق الحياة، ولا نسعى لتقنينه منهجيا، بل نترك أمر تقعيده في الغالب للعرف والعادة.

انطلاقا مما سبق؛ من كون الصوت لغة كلية، يصدر عن الإنسان وغيره، ويدل. ويعني عند الإنسان كل ما ينتج عن تأليف الأصوات الاصطلاحية بقصده أو بدونه، فهو النداء وما يدور في حيزه من المعاني. وهو أحداث أعضاء الإنسان غير الكلمات، تلك الأحداث التي يوجد تناسب فيها بين الأصوات ومدلولاتها، نظرا لكل هذا وغيره مما سبق في هذا الفصل فإن ثمة مسألة هامة جديرة بالمناقشة في هذا البحث هي: إشكال المصطلح: (الأصوات اللغوية).

وبالنسبة لهذا الإشكال: (مصطلح الأصوات اللغوية) ينبغي دراسته دراسة تاريخية (موجزة) تساعد على معرفة نشأة هذا المصطلح، وما عرفته دلالته من تطور، ثم ما يمكن أن يكون لذلك التطور الدلالي من آثار إيجابية، أو سلبية على الموضوع الذي نحن بصدد دراسته، سعيا لضبط العلاقة بين كل دال ومدلوله، في

النص مع العلم أن بنيات النص أصوات مفردة، وكلمات مصوغة، وجمل مركبة، وكل واحد منها يمثل دائرة خاصة من الدلالات ولذا لا ينبغي أن تتضارب بصددها المصطلحات، وإلا تعطلت آلة التحليل، وتعذر الفهم. ويفرض المنطق السليم أن نبدأ من الخليل أستاذ سيبويه. ثم الإشارة إلى ما جاء بعدهما مما تيسر من أهم المؤلفين الذين يمثلون المحطات الكبرى في عهودهم. يقول الخليل «.. هذا ما ألفه الخليل بن أحمد البصري -رحمة الله عليه-، من حروف: أ، ب، ت، ث، مع ما تكلمت به فكان مدار كلام العرب وألفاظهم، فلا يخرج منها عنه شيء، أراد أن تعرف به العرب في أشعارها وأمثالها ومخاطباتها، فلا يشذ عنه شيء من ذلك ....

فإذا سئلت عن كلمة، وأردت أن تعرف موضعها، فانظر إلى حروف الكلمة فمهما وجدت منها واحدا في الكتاب المقدم فهو في ذلك الكتاب...»[21].

من خلال هذا النص يمكن تسجيل الملاحظات الآتية:

ـ استعمال الخليل لمصطلح «حرف» صراحة للدلالة على أجزاء الكلمة «...مع ما تكلمت به» لأن الكلمة جزء الكلام، وأحرف أ، ب أجزاء الكلمة، أو اللفظة.

ـ إن لمدلول هذا المصطلح «الحرف» وظيفة تمييزية خاصة على مستوى بناء دلالة الكلمة في اللغة العربية وشموليتها «فكان مدار...».

ـ لمدلول هذا المصطلح أيضا وظيفة تصنيفية لمواد المعجم في حقول معينة وفق ضوابط جامعة ينبغي الكشف عنها «فإذا سئلت عن الكلمة...»

هذه معطيات أساسية يمكن أن تتظافر مع غيرها على حل هذا الأشكال، الوارد بخصوص مصطلحي الصوت اللغوي، والحرف، المستعملين لوصف أصغر وحدات بنى النص.

21 - معجم العين الخليل (ت 175 هـ)، تحقيق المهدي المخزومي وإبراهيم السمرائي، ص: 47.

ظل هذا المصطلح «الحرف» مستعملا عند أغلب اللغويين والنحاة العرب أمثال سيبويه الذي يقول: «هذا باب عدد الحروف العربية، ومخارجها، ومهموسها، ومجهورها، وأحوال مجهورها، ومهموسها، واختلافها»[22].

وإيراد سيبويه لصفات الحروف في هذا النص، دليل على أن مقصوده هو الأصوات التي تنطق، والقصد نفسه لا يغيب عند الخليل عندما اعتبر «أحرف أ،ب،ت» أس الكلمات، والألفاظ في اللغة العربية، ولكن لأمر ما فضل كل من الخليل وسيبويه استعمال مصطلح «الحرف» بدل الصوت. وقد تبعهما آخرون في استعمال هذا المصطلح أمثال المبرد[23] (ت 185)، وابن السراج[24] (ت 316)، وابن دريد[25] (ت 321)، وابن جني[26] (ت 392) والزمخشري[27] (ت 538هـ)، وابن يعيش[28] (ت 643هـ)، وابن الجزري[29] (ت 833هـ).

كل هؤلاء وغيرهم استعملوا مصطلح «الحرف» وهم يدرسون مكونات الكلمة. وقد أشار محققا كتاب العين إلى أن الخليل كان على وعي بطبيعة المادة التي يدرسها، وقد أوردا في ذلك ما يلي: «... وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف نحو: أ ب، أ ع، أ غ..

في هذه المادة الأولى فائدة لغوية هي أن الخليل مبتدع طريقة علمية قائمة على تحليل أصوات الكلمة ...

---

22 – الكتاب ج431/4، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط. 2، 1403 هـ – 1983م، عالم الكتب.

23 – المقتضب ج1/ 192، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب بدون طبعة، وبدون تاريخ.

24 – الأصول في النحو ج400/3، تحقيق عبد الحسين الفتلي، ط. 2، 1407هـ1987م، مؤسسة الرسالة.

25 – جمهرة اللغة ج4/1. دار صادر، بيروت، بدون تحقيق ولا طبعة، ولا تاريخ.

26 – سر صناعة الأعراب ج41/1، دراسة، وتحقيق حسن هنداوي، الطبعة الأولى بتاريخ 1405 هـ – 1985م دار القلم.

27 – المفصل في علم العربية ص 393، الطبعة الثانية دار الجيل بدون تاريخ.

28 – شرح المفصل ج123/10. عالم الكتب بيروت / مكتبة المتنبي القاهرة بدون طبعة...

29 – النشر في القراءات العشر، ص 188 – دار الفكر، بدون تحقيق ولا طبعة ولا تاريخ.

«وأنت تحس أن الخليل كان على علم بالجهاز الصوتي، وتركيبه وأجزائه وما اشتمل عليه من أحياز، ومدارج، فاستطاع أن يحدد مخارج الأصوات».

من خلال ما سبق يمكن القول بأن اللغويين العرب استعملوا مصطلح الحرف بوعي ودراية، ولم يستعملوا مصطلح الصوت وهم يمارسون تحليله، ولعل في ذلك سرا يفرضه احترام اختصاص المجالات، ولذا يلاحظ أن البعض منهم عندما يضطر لاستعمال مصطلح الصوت لوصف ظاهرة النطق بإزاء مصطلح الحرف يوزع الأدوار بين المصطلحين المتظافرين لإنجاز وظيفة واحدة هي النطق بأصغر وحدة، من وحدات اللفظ. يقول ابن جني «اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا، حتى يعرض له في الحلق والفم، والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده؛ واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا. وتختلف أجراس الحروف باختلاف مقاطعها...»[30].

لقد استعمل ابن جني في هذا النص مصطلح « الصوت » لكنه استعمال خاص، ذو دلالة اصطلاحية أكثر منها لغوية، لأن الصوت هنا وسيلة لإنتاج الحرف، فهو مرحلة من النطق سابقة عن الحرف، ولذا كان الصوت وسيلة لإنتاج الحرف. فالحرف لا يتضح النطق به إلا عند نهاية الصوت عندما يعرض للصوت مقطع يثنيه عن استطالته. وعليه يكون «الحرف» كما نطقيا يسمع عندما يعرض للصوت عارض يثنيه عن استطالته. ولعل هذا التوظيف الدقيق لمصطلح «الصوت» فهم على غير حقيقته عند البعض، ولذا اضطرب عندهم استعمال هذا المصطلح بين المجال اللغوي العام، والاصطلاحي الخاص، جاء في مقدمة كتاب العين للخليل ما يلي: «ومن المفيد أن نلاحظ أن مصطلح «صوت» لم يرد في مادة الخليل الصوتية، ولم يكن من مصطلح العلم اللغوي إلا في القرن الرابع الهجري، فقد ورد في مصطلح ابن جني «التصريف الملوكي»»[31].

30 – سر صناعة الأعراب 6/1.

31 – الخليل ــ كتاب العين ج10/1.

صحيح أن ابن جني استعمل مصطلح « صوت » لكنه استعمله باعتباره وسيلة أساسية لإنتاج الحرف، كما هو واضح في النص السابق، فهو مصطلح مرتبط بإنتاج الحرف، ولا يطلقه إطلاقا اصطلاحيا يعني به الحروف المعجمية كما هو الشأن عند عدد من المحدثين.

لقد اعتادت الدراسات اللغوية (العربية الحديثة) أن تسمي حروف المعجم (أصواتا لغوية). وهذا أمر ينبغي إعادة النظر فيه في تقديري ومناقشته، حتى لا يقع الخلط بين المجالات، ويسود الغموض المفاهيم، وتتغير الحقائق، وتبنى الدراسات على أسس مهزوزة، ويسوء حال الأمة. وتتجه وجهة غير سليمة، وهي تعتقد أنها تحسن صنعا. والأمر هنا في هذا المبحث (إشكال المصطلح) يتعلق بمجالين مختلفين من التعبير، لكل منهما مكانته المتميزة في عملية تحليل النص هما: الدلالة اللغوية، والاصطلاحية (لكلمتي): الصوت، والحرف.فقد استعمل القدماء ــ كما لاحظنا ــ مصطلح الحرف، وقصدوا به كما معينا من اللفظ؛ الذي ينطق به الإنسان،واستعمل المحدثون مصطلح «الصوت»، أو«الصوت اللغوي» للدلالة على نفس المفهوم[32]. ولذا سنعقد مقارنة بين دلالة الكلمتين في هذا المجال،لملاحظة ما قد ينتج عن هذه التسمية أو تلك من خلل في الفهم، أو صحة في التصور، وذلك فيما يلي:

أ – أثناء عملية التلفظ، يكون الصوت وسيلة، والحرف غاية[33].

ب – الصوت اللغوي (عند الإنسان) وحدة معجمية، أي كلمة، والحرف جزء من أجزائها[34].

ج – الصوت لفظ عام يصدر عن الإنسان، أو الحيوان، أو الجمادات والأشياء[35]، والحرف لا يصدر إلا عن الإنسان.

32 – انظر على سبيل المثال: إبراهيم أنيس ــ الأصوات اللغوية ودراسة الصوت اللغوي للدكتور أحمد مختار عمر وغيرهما.

33 – أنظر الإحالة 30 من هذا المقال.

34 – الخليل ــ معجم العين 48/1، وكل كتب الصرف التي تتناول بناء الكلمة.

35 – أنظر الإحالة 11 من هذا المقال، ولسان العرب 57/2، و 41/9.

د – الصوت قد يشترك في الوصف به الإنسان وغيره كـ « الهسهسة عام في كل شيء له صوت خفي كهساهس الإبل في سيرها 213/2. [و] الصياح: صوت كل شيء إذا اشتد. 214/3...[و] الغرغرة: صوت غليان القدر، وتردد النفس في صدر المحتضر. والعجيج: صوت الرعد والحجيج، والنساء، والشاء، والزفير: صوت النار، والحمار، والمكروب إذا امتلأ صدره غما فزفربه... والصهطلق: الصوت الشديد للمرأة، والرعد، والفرس... والأطيط : صوت الناقة والجمل، والرجل إذا أثقله ما عليه 223/22 »[36]. في حين أن الحرف لا يطلق إلا على ما ينطق به الإنسان من أجزاء الكلمات. فلا نقول حروف الطيور، أو الكلاب أو الأجراس.

هـ ـ الصوت وحدة معجمية (غالبا) أو ما يقوم مقامها، تحيل على شيء ما في الواقع، والحرف لا يحيل على أي شيء خارج ذاته، وإن كان يحمل دلالة عامة ما.

و ـ والصوت مركب، والحرف بسيط (في الغالب).

ز ـ «كل الدلالات المعجمية لمعنى الصوت تعني، الخطاب المفهوم، بأي شكل من الأشكال، فهو نداء، أو دعاء، أو صياح، أو تشهير»[37].

أما الحرف معجميا فإنه لا يعني « إلا الوحدات المفردة التي هي أجزاء الكلمات، فهو لا يحيل على أي معنى إلا ذاته ». يقول ابن منظور: «الحرف من حروف الهجاء: معروف، واحد حروف التهجي. والحرف: الأداة التي تسمى الرابطة، لأنها تربط الاسم بالاسم، والفعل بالفعل كعن،وعلى، ونحوهما. قال الأزهري: كل كلمة بنيت أداة عارية في الكلام لتفرقة المعاني، واسمها حرف، وإن كان بناؤها بحرف، أو فوق ذلك مثل حتى، وهل ... وكل كلمة تقرأ على وجوه من القرآن تسمى حرفا ... والحرف القراءة ...»[38].

36 – انظر الثعالبي في: فقه اللغة وسر العربية ص: 213–223.

37 – لسان العرب 57/2.

38 – اللسان 41/9.

إن الدلالة المعجمية لكل من الكلمتين تسعفنا على تحديد مجال استعمال كل منهما مميزا عن الآخر، ذلك أن مدلول الصوت كلي، والحرف جزء منه، ووظيفة الحرف لا تعدو أ ن تكون مكونا من مكونات مدلول الصوت، إن بنود المقارنة السبعة توضح بجلاء إلى أي حد كان مصطلح الحرف دقيقا عند القدماء،وبالخصوص رقم(ح) و(د)، فالترخص في استعمال مصطلح الصوت بدل الحرف وفق هذين البندين يجعل الإنسان في مرتبة الحيوانات والأشياء. والترخص بخصوص البند رقم(هـ) يفقد المصطلح أسسه البنائية من جهة عند ما نعبر بالصوت عن الحرف، كأن مرحلة الحرف في بناء الكلام غير موجودة، ويفقده سلامة دلالته من جهة ثانية للجمع بين متناقضين (+دال–دال) فالصوت يطلق على ما يحيل على شيء مّا في الواقع، وهذا معنى (+ دال).والحرف لا يحيل على شيء في الواقع وهذا ما يقصد ب (–دال). فكيف يمكن الجمع بين دال سلبي (الصوت) ومدلول إيجابي ؟ الدال الذي هو الصوت، عندما يطلق على مضمون الحرف ومعناه الذي هو مدلوله، كما هو المفترض في تركيب هذه العلاقة بين الدال والمدلول في تسمية المحدثين مكونات بنية الكلمة أصواتا لغوية ؟! وعليه يبقى المصطلح السليم في هذا المجال هو «الحروف المعجمية»(*) وهو مصطلح سائد بين القدماء: مقابل ما يسمى اليوم الدراسات الصوتية.

وبعد فإن مصطلح الحرف ينبغي أن يحيا ويسود لأنه من باب أسماء الأجناس التي ينتج عن تغيير مصطلحاتها تغير المفاهيم . يقول ابن يعيش ، وهو بصدد المقارنة بين أسماء الأعلام ،وأسماء الأجناس «... ألا ترى أن رجلا يفيد صيغة مخصوصة ، ولا يقع على المرأة من حيث كان مفيدا ، وزيد يصلح أن يكون علما على الرجل والمرأة ، ولذلك قال النحويون : العلم ما يجوز تبديله وتغييره. ولا يلزم من ذلك

* – ولا يمكن أن يزاحمه في صلاحية الاستعمال إلا مصطلح « حروف التهجي، وهو اقل منه ورودا في تقديري، ولكل استعمال مجاله، فمصطلح حروف التهجي عند دراسة الحروف لذاتها.وعندما نقصد دراسة وظائفها الدلالية يحمل بنا أن تستعمل مصطلح « حروف المعجم».

تغيير اللغة ، فإنه يجوز أن تنقل اسم ولدك ... من خالد إلى جعفر ولا يلزم من ذلك تغيير اللغة وليس كذلك اسم الجنس ،فإنك لو سميت الرجل فرسا، أو الفرس جملا ، كان ذلك تغييرا للغة...»[39] ويكفي قدحا لمصطلح الأصوات ، أو الأصوات اللغوية أن يسوي بين الإنسان والحيوان والأشياء. إنه مزلق خطير ، يؤدي إليه الترخص في استعمال بعض المصطلحات دون الانتباه إلى ما قد ينتج عن ذلك من تشويش على الفهم أحيانا. أو تحريف المفاهيم أحيانا أخرى. وبما أن مصطلح الأصوات صار شائعا بين الدارسين ، وربما يستعصي تغيير أفهام الناس وثقافاتهم ، فإنه يمكن الإبقاء على مصطلح الأصوات على أن يقيد بالهجائية[*]، تارة، والمعجمية أخرى حسب الحاجة.

39 – شرح المفصل ج27/1.

* – اذهب إلى هذا الاقتراح فرارا من الخلط الذي يشوب تفسير « حروف المعجم» عند بعض القدماء. كما مر عند ابن منظور على أن يكون ثمة تبادل بين الكلمتين : المعجم والهجاء حسب سياق الدراسة ، فإذا كان الأمر يتعلق بالنطق فضل مصطلح « الأحرف الهجائية ». وإذا كان يتعلق بالبيان أو التنظيم رشح مصطلح « حروف المعجم».